فلسطين بعد خمسين

هواجس الفتى الغافي

(إلى الشهداء.. إن كانوا يقبلون الآن اعتذاراً)

ماهر رجا

اتعبتني/اتعبتَ ايامي معكْ
فتركتُ عمري يا حبيبي/وانثنيت لاتبعكْ
لو شئتَ تغفو برهةً/على اشيل مواجعكْ
لو ان قلبك سَرّ لي/منْ ذا يعاود مصرعكْ..!

قمرٌ خريفيٌ
أطاح بصمت فضته على تَعبٍ... ومالْ
مال الطريق،
فكنّس الحَرَسُ الرخاميُّ الغروبَ
عن الرِّتاجِ وأقفلهْ..
.. من غابة الشجر القريبِ
تشدُّ أسرابُ السنونو ثوبَ ليلٍ هادئٍ
وتذوب، أغربَ من هتافٍ غامضٍ
فوق السفوح القاحله...

أصغى السياجُ لزحف أوراق الخريف
على المَمَرْ
لكأنّ صوتاً كان يسقط كالأساورِ
فوق رملٍ ناعمٍ.

بتمهّلٍ..
هبط الملائكةُ الطيورُ من ابتهالٍ ذابلٍ
كي يفتحوا كهف الذهابِ
لقادمٍ قد نام منذ هُنيهةٍ
ما بين شاهدةٍ وكَوْمٍ من ترابْ.

طِينُ الأصابع كان يبكي في حديد البابْ
بَشَرٌ رخاميونَ
يرتعشون خلف حديقة الأشواكِ
من عَهْدٍ قديمٍ، صامتونْ
كانوا..، وزوار المكان يعلّقون وجومهمْ
في السور.. ثم يغادرونْ.

الصمتُ خلخالُ الهواءْ
والشاهداتُ البيضُ أشرعةٌ محنطةٌ
على بحر المساءْ
وتضيء بسملةٌ
معلقةٌ من الأهدابِ فوق الدَّربِ
مثل فراشةٍ ليليةٍ.
....
قَمَرٌ
ومقبرةٌ
وليلْ..
في العَتْمِ
يلمعُ خاتمٌ
نسيته زائرةٌ غباراً ناصعاً
ما بين قبرين
استفاقت «ريحةُ» الحناءِ
في الكفّينْ
في زفّةِ البُنّيّ
رنَّ الهودجُ القرويُّ خلف حصانه
لونُ النحاس لصوت من غنّوا وراء
الركبِ للمزمارِ
يومَ استدرج الفتيات
كي يخرجنَ من عَرَقِ العروسِ
الى غبارِ..

الليلُ بئرُ الهمسْ
إذْ آخرُ الأصوات في الحيّ القريب كأنها
قطراتُ ماءٍ تقدح الأصداءَ في جدرانه..
من مَخْملٍ
يتدثرُ السّرو النحيلْ
وجلاً يجوسُ الدربَ
يبحث عن مكانٍ دافئٍ حتى الصباح..
رُدّي نوافذنا قليلاً
واتركي في ساحة البيت العتيقِ
الشايَ والكرسيَّ ينتظران صيفاً ثانياً
.. إن البيوت على ذراع التل خائفةٌ
ولم تفركْ قناديل المساءِ
وفي الطريقِ العابرونَ الواجلونْ
قطَعُ الوساوسِ ظلُّهمْ
لكأنهمْ قطفوا معاطفَهم عن الجدرانِ
في ليلٍ مطيرْ...
....
أيلولُ ليلْ..،
قمرٌ تسمّرَ فوق مقبرةٍ
فأسقطه دعاءُ الحارس اليوميُّ للشهداءِ
كي يقضوا ظلاماً طيباً
يجدوا بقايا من ملامحهم غداً
ويخلّصوا في الفجر مرقدهم
من النوم الطويل...

.. يصغي لهم
يصغي السكون لصمتهمْ؛
.. من ساعةٍ،
يتقلّبُ الشهداءُ في أجداثهمْ
من ساعة يتعاتبونْ:
من ماتَ أوّلنا على الخندقْ؟!
نادى ليقتحم الرصاصُ كمائنَ الزيتونِ
في أجسادنا

كنّا نصدقُ أنّه سيموتُ كي يرزقْ.
كنا.. ولكنّا ذهبنا وحدنا لغيابنا
لا فَرْقَ بين القبرِ والخندق...
....
حُلُمٌ
كأنّ مخيمَ اليرموكِ في حُلُمِ الدخانْ..
كان الفتى الغافي دخاناً للرياحِ
وكمْ تبعثر فوق شاهدةٍ.. وضاعَ
فما استراحْ.

.. كانتْ لَهُمْ أسماؤهمْ
والآنَ.. غابةُ عوسجٍ
وهمُ انتظارُ مرورِ زائرةٍ
تهدجت السنينُ بصبرها
فَرمتْها في آسِ العتابِ على الضريحِ..
وغادرتْ.
.. كَمْ حاول الولدُ الشهيدُ لعمرِهِ بيتاً
وسيدةً،
ويحلمُ:
إن تأخَر لن ترى شمسَ النهارْ
ستقصُّ في الشَّعرِ الطويلِ جديلةً
دون اعتذارْ.
سيتوه في النهدين عصفوران مذبوحانِ
من توْتٍ ونارْ.
لو ضَلَّ فوقَ طريقه
لو عشَّشَ العُلّيقُ في بابِ انتظارْ..

أيُّ اعتذارٍ
من سنونوةٍ لنبعٍ ناضب
وقتَ الغروبْ؟!
هل يسمعُ الأحياءُ همسَ الأضرحهْ؟!
ماذا يقول السيدُ المسكوبُ في تابوته،
لفتاته
[شفتاه بابا وَهْدةٍ سوداءْ
عيناهُ ـ يا عينيه ـ قافلتا تُمورٍ
راح يعجنها الترابُ برشحِ ماءْ]:
«لا ترحلي..
كُنتِ انتظرتِ؟!
فلا تصدّي.. واسمعيني
إني أحبك
إنما الطلقاتُ أسرعُ من يديكِ الى جبيني
ناديتُ نافذة انتظاركِ
كي تعلقني على قمرٍ
لأهوي ليلكاً
عبثاً أردتْ
عبثاً.. وتشهد غابةٌ
دَفَنتْ بنفسجةً على المتراسِ
كي ترتاح قصّتُنا بصمتْ
عبثاً صرختُ من الجراح لتسمعيني
.. عادوا من الحربِ البعيدةِ كلُّهمْ!
لكنْ، أنا... فلتعذريني
أنا ما استطعتْ...».
....
مال الطريقُ،
فأقفل الحرس الفقير حديدَ بابِ المقبرهْ..
يهوي بعيداً... موهناً
رَعْشُ الضبابِ بصوتِ فيروز:
«احكيلي احكيلي
عن بلدي احكيلي..»
والدربُ نافذةٌ عجوزٌ،
علّقتْ في الليل قنديلاً ضريراً
كان يخفق،
ثم يشهقُ من ظلامْ.
....
ذابلٌ قلبي
وأعرفُ، سوف تنسى يا حبيبي..
أيلولُ يزرعُ في غرابةِ شرفتي أشجارَهُ حطباً
ويمحو كل شيءٍ:
صوتَ دوريّ الصباحِ ومقعدين
ودفتراً بالأمس هيّأ للقصيدة كأسها
فتمنعتْ
وحقيبةً للمرأة السُّهبيةِ العينينْ
ويمامةً نسيتْ شتاءً عابساً
في ريشةٍ تهوي على قلقِ السطوحِ
وما تبقّى من كلامٍ يابسٍ
في منزلٍ مهجورْ...
....
قمرٌ بعيدٌ
ليلُ ذكرى
آخرُ الطرقاتِ أقفرَ
والمخيمُ غارقٌ في النومْ..
غَفلتْ بيوتُ النائمينَ
غَفلْتِ عن قلبي
وقبّرةُ المقابرِ أسقطتْ تعبَ النهارِ بعُشِّها.
.. هل أُغلقَ البابُ القديمُ
ليصرعَ الشهداءَ سَهْمٌ غائبٌ
في كَعْبِ ذاكرة «الوكالة» والطحينِ
فيخرجونَ بقامةٍ حجريةٍ
يتهدلونَ من النقوشِ على الشواهدِ؟
ـ ذاكَ عبدُ الله؛
جاءَ إلى هنا
يوم احتمينا وحدنا
بمخيمٍ من حُلْمنا
فأعدَّ مما قالتِ الجَداتُ بحراً للرجوعِ
وما انثنى...
قَدْ جاءَ.. في تابوته شجرٌ
ويغفو،
نام في جثمانه مطرٌ..

ـ وهناكَ عبّاسُ الحزينْ
أراد من عامينَ أن يَهبَ اليدينِ لطفلتينِ
وأنْ يقول لزوجةٍ [شَهَقَتْ على ظَهْرِ
الجنازةِ]
ما يعذّبُ نَجْمَهُ:
«يا فاطمهْ!
وحدي أنا
أمشي لمقبرة الأماني الميتهْ!
مالَ الطريقُ

فعلّمي الأولادَ من درسِ القراءة
بعضَ واجبهم..
ونامي
واستريحي من همومي
واهربي للضوءِ
من ليلِ التأملِ في النجومِ الساقطهْ»..

ـ .. وهنا مُحمّدْ
ولدٌ تناثر من شقوقِ ردائه الخشبيْ
فرأى مشيّعهُ يسلُّ خطابَهُ من غِمْدِه
والقلبُ إذ يبكي محمدْ
في حُرقةِ الطلقاتِ مغمدْ
....
قمرُ الهواجسِ
آخرُ اللعنات
غاب مخيّمُ الفقراءِ في ظلِّ الزقاقِ
ليعتري دربي الأخيرْ..
لا الليلُ يدركُ ـ أو وداعُكَ ـ ما أضعتَ
اسمعْ إذاً:
سيجهّزون رثاءهم لتموتْ
لتموتَ،
خبّئْ ما استطعتَ من انتباهكَ.
هَهُنا طينُ الخيمِ قشّه هَرِمٌ.. ويغفو
مثل «سلمانٍ» على منساته
ملكٌ يدور الجنّ، خلفَ الوقتِ،
في عكازِه
لكنّه تابوتْ
ولسوف نُسقط رحلةَ الخمسينَ عاماً
إن تهدّل كي يموتَ.. وكي نموتْ..

لتموتَ حاول أن ترى
وَجْهَ النهايةِ بُرهةً:
أهلُ المدينة نائمونَ
فمنذ وقتٍ أرسلوا
عِقْد الفتاةِ إلى مياهِ النهرِ
كي يرضى الجفافُ.
فلا نحبك أو ننادي
إن تبعثرت الضفافُ
وإذا أفاقوا يخرجونَ إلى الحقولِ
ويحرقونَ الخيلَ
في دُخّانِ فنجانِ الصباحِ وينزعونْ
طِيْنَ السهولِ من الشبابيكِ العتيقةِ
في السفوحِ
وينحبونْ
يتحدثونَ عن الأيائلِ في الرسومِ
وفي المساء يرددونْ
ما قال فرسانُ الدّخان عن السفرْ:
«وقتٌ بعيدْ
ولا يدقُ ظلامَ قريتنا أحدْ
كي نسأل السُّيار عن قصصِ الطريقِ
وعن حصونٍ
أشرعتْ أبوابها لليلِ
في الوقتِ البعيد...».

.. لتموتَ حاول أن ترى.
كان الفتى الغافي بلاداً، إنما
كَرِهَ الجنودُ لأنْ يكونْ
هالَوا الترابَ على الضريح وهلّلوا
«لله إنّا راجعون»...
....
مال الطريقُ
وغادرتْ شمسُ الغروبِ الظلَّ في
قيلولةِ الموتى
.. لم تعرفي ألمي مصادفةً
لم تسعفيني
ورأيتُ أكثرَ ما تبيحُ العيْن.
مرّي على يومي المضيعِ مرةً
قد غادروني
كم كنت أزرع غابةً من عطرك
الجبليِّ..، أحْلُمُ،
مَرّت الطرقاتُ في حُلُمي غباراً
ورأيتُ في كفي السلاحَ مُهدّلاً
يرجو الحدائق أن تصدّقهُ
ويتبعُ أوّلَ الذكرى
وأول الفتياتِ
أولَ مَنْزلٍ
ما بين مدرسةٍ.. وخندقْ..

كان انتظاريَ جائزاً
وهوى الخيمُ تحت أسطحةِ الغسيلِ
ولفتةِ العذراءْ..
كان الفتى الغافي دُخاناً
«وردي عليك»!
رحلوا إلى أشيائهمْ
ومسائهمْ
ونسائهمْ،
وهويت،
ما أشقاك من ولدٍ غريرْ!
من ذا يفسّر في المنافي
معنى احتراق الكستناءْ
بحكاية الأرض ـ المدافئِ
في مساءات الشتاءْ؟
لا شيء من قلقٍ أخذتَ
سوى سقوطك نحو مثواكَ الأخيرْ
أوّاهُ، ما أشقاكَ من ولَدٍ غريرْ!...
....
[خَلَتِ الشوارعُ،
قامتِ الأوهامْ
الظلُّ يطوي الأمكنة،
شخصٌ تأخّر في الرجوعِ
أتاه نَوح الريح من أسوارِ مقبرةٍ
فأسرع كي يغادره الظلامْ..]

أرأيت؟!
أرأيت يا امرأةً تركتُ على الوصيةِ والتمني
أرأيتِ كم جازيتني؟
فرّوا
لأقتسم الوقوفَ مع ارتفاعِ السورِ
ما انتبهَ الخيمُ صَوْبَ قلبي
أصغيتُ.. لو ألقى نداءً واحداً!

لو قال إنك لستَ مني..

أرأيت يا امرأةً تركتُ على الوصية والتمني
..السور في قلبي المبعثرِ في التراب
بوابة نسيتْ محاربَها
وأخفى الحارسُ اليوميّ قهوتَه عن الشهداء؛
يسمع نشرة الأخبار في تبغ بليدٍ
يلعنُ زوجةً ثرثارةً
يأتي إليه تذكّر النسيانِ
يضرب كفّه في كفّه:
«لا حول إلا الله»
كم صار ينسى في الصباح
على بوابة الموتى ارتجالَ الفاتحهْ!!
....
هذا الصباح.. أتذكرينْ؟
أعطيتُ مرآتي لوجهك قبل عامْ
وأضعت وشماً من يديْ
ما بين خصرك واحتفال الشَّعرِ
في الظَّهرِ الرشيقْ..
هذا الصباح أفقتُ مهموماً
لمستُ ملامحي
كانت تشدّ ضفافها...

أيلولُ شاهدةُ الظلام
وهنا أنامْ
الصمت يسمعُ وحدَهُ
والليل نامْ
والليل عوسجة تشرّش في الضريحِ
تدق في قلبي نفورَ الريح.. آآآه
ـ يا حارسَ الغُيّاب والغيبهْ
كان الفتى الغافي غبارَ قوافلِ الخيبهْ
ابعث لنا مَلَكَ القبورِ
فتى الدخان على احتضار مرّةً أخرى..!
.. وتقول شاهدةٌ:
أيعودُ من ماتوا من الذكرى؟...
....
ليلاً
سترتعشُ الشواهدُ،
يخرجونَ
بقامةٍ حجريةٍ
يتفقدونَ معابرَ الأحياءِ
أسْطحةَ المنازلِ
دَرْبَ مدرسةِ البناتِ
بلادةَ الأزهارِ في الشرفاتِ
وكلَّ شيء.
ربما بقيت ملامحُهم على الجدرانِ
وربما بعض الهواجس في الظلامْ..
يتسلقونَ الملصقاتِ
فيخفقونَ
ويرجعونَ
ليشنق القمرُ البعيدُ سحابةً
ويفتّ قلباً من رصاصٍ
في الشواهدِ والرخامْ...
....
قمرُ الهواجسِ
نومُ مقبرةٍ
وليلْ..
.. قد كنت تخفينَ الحقيقةَ،
لن تعودي كي تقولي إنهمْ
كانوا رحيلاً.

ظلّوا،
إذا ارتبكَ الطريق على صدى الخطواتِ،
تحزنهم قراءةُ قصةِ الأسماءْ
ظلوا هُمُ الشهداءْ
ظلوا يقيمونَ الصلاةَ وما أضاعَ العمرُ
في بيارةِ القدماءْ.
حتى إذا ارتعشت زهورُ العيدِ خلف قبورهمْ
سألوا الصغارَ العابرينَ عن الوصايا
من يجيبُ؟؟
.. ولا أحدْ..
يتساءلونَ، فيُقتلونَ
ولا تكون دماؤهم أبداً بلدْ!
.. لم تسرجِ الحربُ النهارَ، وما التقتْ
في يومِ قصتهم خطانا
صدقونا.. صدقونا
ثم غابوا في الأبد...
....
قمرٌ
ومقبرةٌ
وليلْ..
للصمتِ سيدهُ فتًى
الليلُ خادعه.. فنامْ
طالَ المنامْ،
وأتَتْهُ في الرؤيا بنادقُ من مضواْ مكسورةً
لو شاء ينكرها
ستنكرُهُ حماماتُ «السلام»..

قد قال حفارُ القبورِ بأنّهُ
في غَفْلةٍ، كسرَ الرخامَ
فكان في كفيكَ تابوتُ الكلام الممتنعْ
أوَكنتَ تخفقُ أن تهامسهُ ليسند وجنيتكَ
معمقاً كهفَ الضريحِ، ليتسع!..

للصمتِ سيدُه فتى
مجذافهُ بحرٌ
وقاربُهُ وحيدْ
ويراهُ تابوتاً، فيكسرُهُ
ويقتلُ من جديدْ...
...
وحدي.. وهُمْ
وحدي،
وأسرج قصتي وهزيمتي بقبورهمْ..
.. لا يسمعُ الأحياءُ همسَ الميتينَ، ولا لغهْ
لتجوس في سرِّ الغيابِ وغائبينَ، ولا شجنْ
يكسو عتاباً بيننا
عبثاً إذاً
عبثاً إذاً.

* * *
[استيقظتْ قصصُ القُدامى في الظلامِ
غفا الطريقُ
تسلّق القمر الخريفي السماءَ
فأقفل الحرسُ الفقير حديدَ مقبرةٍ
وأوغل في المساء...]

دمشق